صديق رجيم

مهداة إلى صاحب العزة الزيات بك

للأستاذ حبيب الزحلاوى

ما أكثر ما نخدع أنفسنا بأصدقائنا السلامة فى طويتنا ، أو غفلة عن النظر إليهم بغير عين الصديق

كثيراً ما سمعت الأستاذ العقاد يقسم الصداقة إلى أنواع ، ويصنف الأصدقاء أصنافا ، هذا نصف صديق من نوع كذا ، وذاك ربع أو ثمن صديق من صنف كيت ، وكانت لائحة الأصدقاء عنده أشبه ما تكون بورقة ذات خطوط وتماريج فى الطول والعرض يثبتها الطبيب فوق سرير المحموم تسجل المواسية فيها درجات الحرارة وتقلباتها . وما كان يضير أستاذى العقاد أن يسقط صديقا من صفوف الأنصاف إلى الأعماق أو يرفع آخر إلى أعلى درجة ، ولا يؤاخذهم على بادرة أو هنة أو هفوة إلا بالحساب القيامى لمنزلتهم من الصداقة

كنت أستغرب تلك التقسيمات ولا ترتاح نفسى إليها ، لأنى تدربت منذ الصغر على أن مكان الصداقة هو القروة إن تزحزحت عنها هبطت إلى الحضيض ، وأن الوسط بين القروة والحضيض هو النفاق ، وكنت إن منحت صداقتى لإنسان فإنى أمنحه إياها بسخاء كامل ، وإن ضننت بها ، فإنى أضن ضن الشحيح المتأنى ، وكنت أعتمد فى الحالتين على الحدس والجاذبية

لقد قطعت أشواطا من حياتى ، فما أكثر من خاصمت خلالها من أصدقائى ، وما أقل ، بل ما أندر من عاديت منهم لاعتقادى منى بأن الخصومة من شيم الأصدقاء العقلاء . أما العداوة فهى من أوصاب الجهلاء والأغبياء ، وإنى أنزه أصدقائى عن الغباء والجهل لأنهم كلهم بين أديب وعالم ومن خيار المثقفين

* * *

لقد أدهشتنى يا صديقى ، يوم عاتبتنى بشدة ، وعهدى بك الدمث السلس ، وما عهدت بك الفجاجة والتوعر قط ، لقد أذهلتنى ساعة سألتنى عن ذلك الإنسان الذى جالسنا فترة بل هنيهة وانصرف . لقد أذهلتنى وقد كانت نبرة الكلمة تنطلق من بين شفتيك كالسهم ، تسألنى بشدة وصرامة أنى وكيف عرفت ذلك الوجه الكالح المكفهر ، والقدم الفظ السمج الغليظ ، لقد حيرتنى وأنت تنقض كالصاعقة تنزل البلاء بصديق الذى لم تره إلا فى تلك الجلسة العابرة .. ولم تسمع سوى نتف من حديثه الخاطف ، لقد تحيرت لا لأنك استثقلت روح صديقى وعجمت كثافة ظله ، بل لأن حكمك الجائر ينصب على ذوق ، وعلى معرفتى وتقديرى فيمن اختار من الأصدقاء

لم أحاول إقناعك بأنك جائر فى حكمك على صديقى المسكين والتجمع والتلبد . وبهذا تنسق المعانى وتزول الضدية

أختم بالقول أن الثنائية ليست كما يتبادر إلى الوهم ، هدامة للثلاثية والرباعية ، ولاهى مقوضة أركان المعاجم ، إنما هى وسيلة للتأصيل السابق طور التصريف . فالقائل بالثنائية يدع التصريف على ما هو للثلاثى والرباعى ، ويحصر عمله فى المعجمية . وفى هذا الحقل عينه لا يتوخى محق الثلاثية والرباعية ، لكنه يرتئى بأنه كما أن الرباعى يسوغ رده إلى الثلاثى ، وكذلك يمكن رد الثلاثى إلى الثنائى . مما ينجم عنه أن ليس الثلاثى بده الاشتقاق ، بل الثنائى

ويرى عمليا أن فى هذه النظرية فوائد جمة المعجمية ، منها تجلى الانسجام والتساوق فى تشعب الألفاظ بعضها من بعض ، وتوسع المعانى وتطورها مما هو واضح القصدان فى الحالة الثلاثية الحاضرة

فمن ثم ، لا خشية على المعاجم من الثنائية ، لأنها بالعكس تتمشى فيها تنظيما معقولا ، كما أن ترتيب المعاجم الحديثة ، مثل محيط المحيط ، وأقرب الموارد ، والبستانى لم يضر المعجمية بل نفعها ، وإن خالف فى الواقع تنظيم المعاجم القديمة ، أو بالأحرى عدم التنسيق فيها

والآن أكرز للمجمع الموقر آيات الشكران ، متمنيا لجميعكم التوفيق والنجاح فى خدمة اللغة العربية الجليلة والسلام

الأب مرمرجى الدومنيكى

لأني كنت في تلك الساعة مشغول الذهن بك وقد جاش صدرك بالغيظ مني . لقد توهمت أنك تنتزع مني كل الصفات والمزايا التي أحببتني من أجلها ، توهمت ذلك ، بل دهمني التوهم فجأة ، أنا الذي طالما اتفقت معك في الذوق والتقدير ، والاختيار والإعجاب ، ولم نتخالف في حكم واحد على أمر واحد إلا فيما قل أو ندر . وقد كنا في هذا الاختلاف النادر نلجأ إلى المنطق ، والذوق ، والقواعد المقررة والمتعارفة ، لنصل إلى الحق والخير فنقف بجانبهما

لقد انطويت على نفسي أستعرض ملامح وجه ذلك الصديق المسكين ، أستذكر حكاياته وتصرفاته ، أردد أفكاره وأحكامه ، أستجلي ماضيه وحاضره ، وأستشف غرائزه وملكاته ، من جود وبخل ، وكرم ولؤم ، وأنفة واستكانة ، وكبر وتواضع ، وشجاعة وجبن ، إلى آخر ما هنالك من ملكات تحتم الصداقة معرفتها لتقر الصديق بنفس يقظة ، وعين لماحة ، وذهن يعي ويحصي ويسجل .

فعلت ذلك لا لأجنس خلائق صديقي ، بل لأقارن بين حدتك ، وبين جاذبية جذبتني إليه ودفعتك عنه ، وبين إتتناسي به وتفورك منه ، ولمعرفة الأسباب التي جعلتك ترضى عن أكثر أصحابي ، على قلتهم ، وتغضب على هذا الفرد الوحيد الذي لم أرفيه وأسمع منه ما يبعدني عنه كما نفرت أنت منه وأنكرته . لم تعد المسألة وقفا على صديقي ذاك ، بل تحولت فصارت مسألتي أنا ومسألتك أنت ، ولعل هذا الاختلاف الطارئ بيننا سيكون مقدمة لاختلافات تليه ، وتباين في الألفة الروحية والانجذاب إلى الأشخاص والأشياء ؟

• • •

من صعاب الأمور تكليف النفس الخروج على سجيتها ، ومن أشقها عليها تحميلها صعابا تثقل على الولاء بين الأصدقاء ، ولكن للظن والفطانة حق علينا ، بل لنا عليها حق اللجوء إليها في كل ما تدعو الحصافة إليه ، وقد أظهرا لي في ذلك الصديق أمورا يحسن السكوت عن أكثرها لبعدها عن الغاية التي كانت موضوعا لكتابة هذه الرسالة

أية فائدة لغير الباحث المحلل في معرفة ما إذا كان صديق ذاك شجاعا أو جبانا ، متدينا أو غير متدين ، مؤمنا أو ملحدا ، متعصبا أو متسامحا ، كريما أو لئيما ، ولكني أقول في مجال العابر بعض ما استنتجت من خلائقه دون البعض الآخر : إنه مخلوق يجمع بين الأضداد التي ذكرتها كلها جميعا مضبوطا على القد المضبوط ، يتقلب في أمواجها المتدافعة والهو ، وسبب ذلك على ما يبدو لي ، المرض والثقافة ، فهو مريض حقا ، ومثقف متبحر متمكن ، وأنت تعلم يا صديق أن لا محيد للمثقف الحصيف عن تغليب سلطان العقل على الإيمان ، كما لا مهرب للمريض من اللجوء إلى المجهول والاستغاثة به ، وعلى هذا القياس أقول إنه يجمع بين الشيء وضده في زمن واحد ، ولمحة واحدة

قد تسألني عن كنه هذه الصداقة وارتباطي بها ردحا من الزمن فأجيب : الكمال نسبي . والإنسان الذي تتوفر فيه أكثر صفات الكمال المثالي نادر ، والشذوذ عنصر أصيل في طبيعة الأديب والعالم ، وإن رضى الإنسان عن ناحية من الصداقة ، لا يعني الرضوان المطلق عن بقية النواحي ، والانجذاب إلى الصوب الداني من النفس هو الأساس الذي يشاد عليه بناء الصداقة ، ومن هنا نجد أن قاعدة الأستاذ العقاد في تقسيم الصداقة إلى أنصاف وأرباع وأثمان إنما هي قاعدة صحيحة

وصديق ذاك قوال مدره ، ذرب اللسان ، حاضر البديهة ، واضح البيان « يأخذ من كل جانب من جوانب الأدب والعلم بطرف » فياض في الأحاديث يستقيها من مصادرها ، ولست أدري كيف يتوصل إلى تلك المصادر ، وإذا ما بدت لك أطراف من الإفك في رواياته فإنه من الصعب أن تتبين غير ملامح الجد في وجهه وتصلب قسماته . وهو كأكثر الناس في المغالاة والمبالغة وتزويق الكلام ، مزاح ضحاك ، شديد اللدد ، يتقلب في لحظة واحدة من حالة اللؤم وبوادرها مثلا إلى حالة طفلة ساذجة . وهو بحكم العلة المرضية التي تنخب كبده « يدعي قول ما كان يود أن يقوله لجادليه ما قاله لهم حين الجدل ، وهو لهزاله وضعفه يتصلف ويتكبر تكبر الأقوياء . فأنت ترى أن لا غيوم في أفق هذا الصديق ، ولا مذاهبه مستعجمة ، ولا

مسالكه شائكة ، ولا ثروته رخيصة ، وأن من السهل الهين الأخذ منه ما يعرف والضن عليه بما نعرف ، وهو على كل حال طرفة بالقياس لمن نعرف من الناس ، وعبرة طريفة من نوع من الأنواع

* * *

وحدث مرة أن سألني ذلك الصديق سؤالا لا يمت إلى حياتنا الأدبية بصلة ، ولا يدنو إلى ما ألفنا من أحاديث الأدب والاجتماع . سألني أي أنواع المغامرة أحب إلى ؟ قلت : أحبها إلى نفسي هو الجهاد في كسب الرزق . قال : لم أرم في سؤالك إلى طرق الكسب بل قل لي ، ألا تميل إلى انتزاع فتاة من عشيقها يستتران في الظلام ؟ قلت ما قيمة حيازة فتاة دون امتلاك قلبها ؟ قال مالنا وللفلسفة ؟ ونظر إلى وحدق وقال : نحن الآن عند حافة صحراء « المناظة » وأنت ترى على مقربة منا سيارة يملكها أحد الأثرياء من داخلها سيدة يغازلها ذلك الثري، ألا يخطر ببالك أن نتضافر فننقض على الرجل ننتزع حافظة نقوده وعلى المرأة ننتزع حليها ؟ قلت أعوذ بالله مما تقول ، هل أنت مجنون !!!

انقضى وقت طويل على هذا الاستجواب العجيب الذي اختتمه بضحكة عريضة ، ولم أعره اهتماما لأني ما حدثت في مغامراتي كلها عن جادة العمل للمجتمع ، ولأن أعمالي الخاصة التي فزت بنصيب منها كانت قرينة الجرأة حليفة الإقدام والمثابرة

وحدث مرة ثانية أني كنت وذلك الصديق بمينه مع رفيقين آخرين ـ سأحدثك عنها فيما بعد ـ في مشرب عند صحراء « المناظة » وأن القدر الذي احتسيناه من الشراب كان كافيا لأن يجعلنا نتحلل من قيود العقل ، وأن ينفلت منا زمام التقدير، وأن نستهين بكل مسؤولية

قال صديق مخاطبا رفيقنا : ألم نكن هنالك على بعد كيلو مترين من هنا ؟ ومد ذراعه يشير إلى قلب الصحراء من جهة الشرق

ضحك الرفاق الثلاثة ضحكة فريدة الجلجلة وقال أحدهم « ملعون أبوها »

قلت : من هي تلك التي استنزلتم اللعنة على أبيها ؟

فتاة اشتهيناها ، إن رأيتها أنت كنت أشد شهوة منا إليها

قلت ما حكايتها ؟

أسرع كل من الرفاق الثلاثة إلى قص القصة ، وأخذوا يتدافعون في حكايتها تدافعا ، هذا يمهد ويقدم ، وذاك يشرع في السرد ، والآخر يصحح الوقائع ويعيدها إلى أصولها . وها أنذا ياصديق ألخص الواقعة وأجلها بكلمات ، كلمات معدودات وددت لو أختزلها حرصا على الكرامة الإنسانية ، واستحياء من نفسي

رضيت فتاة من سبط لاوى أن تبيع عرضها لهؤلاء الشباب المثقفين المهذبين لقاء أجر اتفقوا عليه

وأبت البيعة إلا أن تقبض الأجر مقدما ، ولما تم الأمر قبض أحدهم على ذراع المرأة وانتزع الثاني حقيبتها من يدها انتزاعا ، وأسرع الثالث إلى السيارة يهيئها للهرب ، وقد اندفعت السيارة بأقوى سرعتها تحمل الأبطال الثلاثة وبقيت السكينة في الصحراء تعوي كالذئبة ولا من مجيب !

أتدري ياصديق كم حوت حقيبة الساهرة وماذا كان فيها ؟ كان فيها منديل ، وقرش صاغا واحد ، ومفتاح غرفتها ، والأجر الزهيد الذي قبضته ثمنا لعرضها

أي صديق، لقد كان كشف لدني فتحه الله على بصيرتك . يوم رأيت ذلك المخلوق التعس فنفرت منه واستثقلت روحه وكثافة ظله ، أما أنا فقد كنت أعشى العين والبصيرة . أنظر إلى ذلك الصديق من خلف غشاء قدمي نسجته بيدي إجلالا للصداقة . لست بأول إنسان خدع نفسه بمثل هذا الصديق ، إن القط الأليف هو من فصيلة النمر المتوحش ، كذلك الإنسان المهذب من فصيلة الشرير الأثيم ، ولكن متى بدرت بادرة الغرائز الكامنة عاد كل إلى أصله

حبيب الزحلاوي